النار المقدســـة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أنضجت قلبـه النار المقدسة التي أنضجت قبله قلوب رعاة القطيع ... ورواد الطريق ، وآباء الإنسانية البلهاء ... فغدا يسير على الدنيا وله فيها زفير وشهيق مكتومان لا يحسهما إلا من يتصل به عن قرب فيفتح له قلبه الكبير الذي فيـه كل آلام الناس ، وكل فجائع الناس ، وكل مسئوليات الناس ... كأنه أب ذو عيال ! وكأنه مسئول عن ذنوب البشر فهو يخنع نفسه أسفاً ويسيل نفسه حسرات . !

سألته مرة : لم تحمل على قلبك الدنيا ؟ ولم تجتر آلامها وتمضغ أسقامها ، ولست فيها حاكما ولا شرطياً ! ؟ فقال : بليت بالنظرة الناقدة إلى العيوب ، وبالعجز عن وسائل الإصلاح ، فكان لي ما تراه من إدمان المضغ لأحاديث الشقاء وأماني الشفاء !

* * *

مات أبوه فبكت عينه وقلبه ذلك البكاء الرحيم لألم الحب والرحمة والفقد ساعات ... ثم نامت عينـه ونام جسده بجوار جثة أبيه حتى صباح الدفن والضريح كأن شيئاً لم يحدث ... ولكنه لا ينام إذا مات من دينه أو وطنه شيء ... حتى يكاد يجن من الأرق ، لولا أن يتداركه الله بالنسيان والسلوى

* * *

يتخلل الرجال والأعمال ، ويرى ما وراء الوجوه ويقرأ ما بين السطور ... فتروعه عورات الحقيقة العارية في الناس ... إذ يرى الجهل والإثم والدجل والخيانة والأنانية والبلاهة ... فيسأل السماء : أهـذه هي الانسانية أثمن وديعة في الأرض حاكمة ومحكومة ؟ !

مرهف حسه : فيرى كل شيء ويشم كل شيء ويسمع كل شيء حتى امتلأ وتخمته الدنيا بما فيها ؛ فضوى جسـده ، وتوسعت نفسه على حسابه

استقى لنفسه من الأنهار الكبيرة الجارية ، ومن الجداول الصغيرة ، ومن البرك الآسنة ، وحط على الزهرة والشوكة ، والجبل والحصاة والنار والماء ... فاصطرعت فيـه الأضداد .

يعيش في سجن من وصايا الدين والعلم والخلق كأنه (ديدبان) فهو مسجون وسجان ...

متيقظ للزمان ... يعيش كل دقيقة ... ويحسب كل نفس ، ويصحب نفسه دائما حتى أصيب بالذهول عن الناس .

يتكلم مع كل شيء ؛ فيقول لكل حق أنت صديق ، ولكل باطل أنت عدوي ... لا يؤمن بالذكاء ؛ لأنه يدلس ... ولكن يؤمن بالطبع لأنه صريح ...

* * *

يريد أن يعلم الناس كيف يحبون ؛ وهم يرونه ميتاً ... فأين الملتقى ؟ !

يقول لهم : لا تأكلوا الثـفل ... والحروف ... والحجارة .. واكتفوا بالعصارة والمعنى والروح ؛ فيقولون له : أنت تمضغ ماء وهواء ... !

* * *

يا رحمتاه لمثل هذا ما دام حيًّا ... فإذا مات فوارحمتاه للناس !

إن هذا وأمثاله هم أعضاء الإنسانية وأوتادها . من أجلهم وجدت على الأرض ، وإن نارهم مُوقَدة من القبس الخالد الذي أضيئت به السموات وقام عليه صلاح العالم

يكفي أن أنظر إلى واحد من هؤلاء حتى أهتدي إلى نفسي الضائعة ، فأجدها تحت ركام من ضجة الدنيا ... فأقول لها : تعالي وارمضي لفائف صدرك في هذه النار المشبوبة في هـذا الرجل المحترق المضيء وتطهري بها وارجعي إليّ ...

ولقد وجدت واحداً منهم وعشت معه سنتين ، رأيت على ضوئه كل شيء في موضعه الحقيق من الدنيا ، فحملني على احترام الإنسان والثقة بما فيه من عالم طاهر مؤنس إذا صُفِّي جوهره من الخبث والشوائب بهذه النار

بل لقد حملني على احتقار أكثر القوالب الإنسانية التي تملأ الأسواق والشوارع ... وجعلني أدور دورة «ديوجين» بمصباحه وأنشد مع القائل :

ما أكثر الناس ! لا بل ما أقلهم !	الله يعلم أني لم أقل فنـــدا
إني لأفتح عيني حين أفتحها	على كثير ولـكن لا أرى أحدا

أو مع المتنبي : « أرى أناساً ومحصولى على غنم ! »
أو مع الآخر :

لا تعجبنك الثياب والصور تسعة أعشار من ترى بقر !
فى خشب السرو منهم مَثَل له رُواء وما له ثمـــر

* * *

ويلى ويلى من الإنسان ! إنه يشغلنى دائماً بصوره التى لاعداد لها كلما رأيت وجهاً له ... وأقسم غير حانث أنى لا أعرفه ولا أدركه ، رغم خبرى به فى هويتى ودمى وصورتى ! وإن نفسى التى بين جنبى هى القفل والغلق الذى حال بينى وبينه حتى عييت ويئست ...

بل يا ويلى من نفسى واحتكاكها بما وراء الحياة الظاهرة والصور والأشخاص والمواد ... ومن طلبها المزيد من هذا الاحتكاك الذى يغطسها ويتركها ذاهلة ماضية إلى غير وجه الحياة الذى يمضى عليه الناس ...

ولكن لا ... ! بل يالذتى من غريزة التكوين والتخريب هذه التى ترينى كل شىء كامل كومة من الأنقاض ... وكل شىء مخرب خلقاً سويًّا ... !

أليس الرجل طفلاً كبيراً ؟

* * *

يلذ لى أن أراقب الناس وقتاً طويلاً فى الشارع ، وأشبع عينى وما وراءها من أنواعه واختلافه ... لأزداد به جهلاً ...

بل إنى أذهب إلى « السينما » لأراه فى جميع بقاعه وألوان معاشه واختلاف سحنه وألوانه ولغاته ، لأخرج بعد ذلك مبلبل الفكر فيه فى سوء ظن تارة ، وفى إحسان تارة أخرى

بل إنى أطوف كل يوم قبيل نومى بخيالى عليه فى جزره النائية فى المحيطات ، وفى القطبين ، وفى خط الاستواء ، وفى هضبة التبت ، وفى سفوح الهند ، وفى رمال العرب ، وفى ... وفى ... لأعيش فى غيبوبة الصحو قبل غيبوبة النوم !

* * *

لقد رأيته قاتلا ومقتولا ... جنينا محمولا وميتاً ملحوداً ... عاهراً وناسكا ... جميلاً وقبيحاً ... رجلاً بشعر وجهومة ، وامرأةً بزينة ونعومة ... عالماً يضىء استراليا وهو فى أوربا ، وجاهلا قدماً عارياً أبداً عاجزاً أن يعد أصابع يده ... فذهبت من نفسى قداسته وانحطت هيبته ...

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

* * *

أجل ! إنى رأيت مخه ... ورأيت قلبه ... فلم أر شيئاً غريباً عما آكله من الغنم والثيران ... ولذلك كفرت بالجسد كفراً لا إيمان بعده أبداً ... ورحت أبحث عن الإنسان — ذلك المجهول ... فلم أعثر إلا على لمحات عنه خلال كلمات ليست منه وإن كانت بألفاظه . وهى كما رواها محمد :

« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »

« وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ... »

« ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ... »

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ... »

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين »

* * *

يا يد الله ! يخيل للانسان العاجز أنك تخرجين الصنعة من مخابير ومسابير وعجلات ودواليب في مصانع وحظائر . وأنك تستخدمين طلاسم ولوغاريتمات ومعادلات ... كما يفعل هو إذا أراد أن يحاكى أو يوحد بين ذرتين أو يفصل بينهما . ولذلك سألك ابراهيم أحد المقربين إليك : رب أرنى كيف تحيي الموتى فأريته ذلك الكيف . ولكنه لم ير شيئاً أكثر من أنه دعا موتاً فاستجاب له حياً ! إنه لم ير شيئاً ...

إن كل آلاتك كلمة واحدة من حرفين اثنين بكيلنا نحن ولكنها عندك خارجة عن حدود التعداد والقياس

إنك يد تتكلم كلمات وراءها حقائقها المنجزة التى لا تنفد ولو كتبت بما فى الأرض من شجرة أقلاماً ممدودة بماء البحر من بعده سبعة أبحر ...

* * *

قال « اسحاق نيوتن » ما معناه : إن خالق هذا الكون على

علم تام بعلم الميكانيكا.. تماماً كما يقول الطفل : إن الملك عنده مائة دينار

ومن هنا آفة الفكرة في « الألوهية » عند أكثر الناس إذ جعلوا « الله » على صورتهم ومنطقهم ... !

* * *

قالت القدرة المطلقة للعجز الانساني : نَهَجَ هذه الأبجدية التي شئت أن تراها وحدها منيرة حسبك من معرفة . ولكنه تخطى البدائيات وخاض في أعماق أهل فضل في فلسفاته وفرضياته حتى عاد لا يرى تلك المشيئة النيرة

« حددوا المادة وأنا أتكفل بتحديد الروح » . هذا قول « ملكن » العالم الطبيعي الذي قاس مقدار الشحنة الكهربائية على الألكترون ، والذي اكتشف أشعة تفوق أشعة إكس مئات الأضعاف في قوة اختراقها للمواد ... لم يتخط عقله إلى البحث في الروح قبل أن يدري ما هي المادة ... ولعمر الحق إن مثل هذا لن يضل ...

* * *

سأراك أيتها الشمس في عيني جديدة كل صباح ... وأنت يا عالم الظلام ...

وأنت أيتها الأشجار سأصحبك بلفتاتي الذهنية كلما رأيتك قائمة بالفرع ساجدة بالجزع في محراب الطبيعة ...

ويا أيها الماء والحيوان والإنسان والجبل والحصى ...

ياسائر ماخُلق من الآيات التي نمر عليها ونحن عنها معرضون

أقسمتُ لا أبرح أراكِ جديدةً عجيبةً مثيرة للفكر في الرأس والدم في القلب ... حتى لا أنسى ... حتى لا أنسى !

عبد المنعم خلوف

أطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكي (باب اللوق)
ومن : المكتبات العربية المشهورة

من بريد القراء

يتساءل بعض الناس كيف لا يستطيع أدباؤنا أن ينتجوا إنتاج أدباء الغرب ؟ أما أنا فأتساءل كيف استطاع أدباؤنا أن ينتجوا إطلاقاً ، ولماذا هم ينتجون ؟ إن موقف أدبائنا اليوم ليدعو إلى العجب . إنهم في موقف لم يقفه أدب ولا أدباء في عصر من العصور . إن المعروف في كل عصر أن الأدب يرعاه دائماً تشجيع طبقة من الطبقات . ففي عهد الارستقراطية كان في كنف الملوك والخلفاء والأمراء والنبلاء ، يتبارون في حمايته ، ويتسابقون في إعلاء كلمته . وفي عهد الديمقراطية الحديثة وانعدام الأمية انتقل أمره إلى يد الشعب المتعلم فهو الذي يثيب الأديب بالتهافت على اقتناء كتبه ، وهو الذي يحوطه بمظاهر الاحتفال والتقدير . أما أدبنا اليوم ، فهو حائر كاليتيم بين أرستقراطية لا وجود لها ، وإن وجدت فلا شأن لها بأدب ولا أدباء ، وبين ديمقراطية إسمية في شعوب لم يتم تعليمها ، فهي بعد لا تعنى بأدب ولا أدباء . فأنّا ننتج ونحن نعرف أن إنتاجنا لا يهم الحكام ولا المحكومين ، وأن ثمرات هذا الفكر الذي أضعنا من أجله كل حياتنا الجميلة لن يجنيها غير نفر قليل ممن ينظرون إلى استشهادنا بعين الرثاء . نعم إن هو إلا استشهاد ، هذا الأدب في هذه البلاد ... لا شيء غير ذلك . وإني قد سألت نفسي مراراً لمن أنشر كتبي ؟ فكان الجواب : إني انما أفعل من أجل أولئك التسعة أو العشرة من الأدباء الكرام الذين يفهمونني لأنهم يعانون عين الألم ، وينتظمون معي في سلك العذاب ، ويدبون مثلي على أقلامهم في تلك الحياة الطويلة الجرداء ، كأنها صحراء من الجليد لا يهب علينا فيها غير صقيع الإهمال من الشعب وأصحاب السلطان ، ولكننا مع ذلك نسير ونسير متجلدين ، أيدي بعضنا في أيدي البعض كأننا منفيون في مجاهل سيبيريا ... ومانحن في الحقيقة أكثر من ذلك ... مانحن إلا منفيون في مجاهل « فكرنا » الذي يجهله الناس .

توفيق الحكيم